قصص الرحالة

— ٤ —

حَدَّثَكُمْ «فَاسْكُو دَا جَامَا» فِي الْعَدَدِ الْمَاضِي ؛ وَالْآنَ يُحَدِّثُكُمْ «كَارْتِيِي» (Cartier) عَنْ رِحْلَاتِهِ فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ :

«أَسْعِدْتُمْ صَبَاحاً يَا أَبْنَائِي ! أَنَا كَارْتِيِي ؛ وَأَنَا فَرَنْسِيٌّ ، وُلِدْتُ فِي «سَنْتْ مَالو» (St Malo) بِفَرَنْسَا وَمُنْذُ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ تَقْرِيباً ، أَبْحَرْتُ مَرَّةً عَلَى ظَهْرِ سَفِينَتَيْنِ ، مُحَاوِلاً أَنْ أَكْشِفَ طَرِيقاً لِلصِّينِ ، مُتَّجِهاً نَحْوَ الْغَرْبِ ، كَمَا فَعَلَ كُولُمْبُسُ ؛ وَلَكِنْ لَمْ تَنْجَحْ رِحْلَتُنَا تِلْكَ ، فَعُدْنَا . وَبَعْدَ سَنَةٍ ، غَادَرْنَا فَرَنْسَا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، لِنَفْسِ الْغَرَضِ . وَاجْتَزْنَا الْبَحْرَ ، بَعْدَ أَنْ صَادَفْنَا فِي طَرِيقِنَا أَهْوَالاً بِسَبَبِ الزَّوَابِعِ وَالضَّبَابِ . وَأَخِيراً وَصَلْنَا إِلَى مَصَبِّ نَهْرٍ كَبِيرٍ (هُوَ نَهْرُ سَنْتْ لُورَنْس الْآنَ) وَلَمْ يَكُنْ قَدْ وَصَلَ إِلَى ذٰلِكَ الْمَكَانِ رَجُلٌ أَبْيَضُ مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ عَلِمْنَا مِنَ اثْنَيْنِ مِنَ الْهُنُودِ كَانَا مَعَنَا ، أَنَّ ذٰلِكَ النَّهْرَ هُوَ الطَّرِيقُ الطَّبِيعِيُّ إِلَى كَنَدَا ، وَأَنَّهُ يَضِيقُ كُلَّمَا اتَّجَهْنَا نَحْوَ مَنْبَعِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى ارْتِيَادِهِ وَالْوُصُولِ إِلَى أَعَالِيهِ .

كارتي — (Cartier)

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ وُصُولِنَا إِلَى ذٰلِكَ الْمَكَانِ ، قَابَلْنَا رَجُلاً قِيلَ لَنَا إِنَّهُ «سَيِّدُ كَنَدَا» ؛ وَقَدْ جَاءَ عَلَى رَأْسِ جَمْعٍ كَبِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى ظَهْرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَفِينَةً . وَسُرَّ كَثِيراً بِلِقَائِنَا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى أُنَاساً بِيضاً مِنْ قَبْلُ . فَأَحْسَنَ مُعَامَلَتَنَا ، وَمَهَّدَ لَنَا كُلَّ سَبِيلٍ لِلرَّاحَةِ . وَلَمَّا أَخْبَرْنَاهُ أَنَّنَا عَازِمُونَ عَلَى كَشْفِ أَعَالِي النَّهْرِ ، حَاوَلَ أَنْ يُثْنِيَنَا عَنْ عَزْمِنَا وَلَمَّا وَجَدَ أَنَّنَا مُصَمِّمُونَ عَلَى ذٰلِكَ أَمَرَ ثَلَاثَةً مِنْ رِجَالِهِ ، فَارْتَدَوْا مَلَابِسَ مِنْ جُلُودِ الْكِلَابِ الْبَيْضَاءِ ، وَالسَّوْدَاءِ ، وَطَلَوْا وُجُوهَهُمْ بِمَادَّةٍ سَوْدَاءَ كَالْفَحْمِ ، وَوَضَعَ كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى جَبِينِهِ قَرْنَيْنِ ، طُولُ كُلٍّ مِنْهُمَا مِتْرٌ . ثُمَّ رَكِبَ الثَّلَاثَةُ قَارِباً صَغِيراً ، وَاقْتَرَبُوا مِنَّا ، وَأَخَذُوا يُلْقُونَ عَلَيْنَا خِطَاباً طَوِيلاً ، لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَلَكِنْ عَلِمْتُ فِيمَا

بَعْدُ ، أنهُ إنْذَارٌ مِنْ إلٰهِهِمْ بِأَننَا إِذَا حَاوَلْنَا ارْتِيَادَ أَعَالِي النَّهْرِ ، فَإِننَا نَموتُ مِنَ الْبَرْدِ .

عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَعْبَأْ بِتِلْكَ الْخُرَافَاتِ ، وَذٰلِكَ التَّهْدِيدِ ؛ وَرَكِبْتُ قَارِباً صَغِيراً ، وَاصْطَحَبْتُ بَعْضاً مِنْ رِجَالِي ، عَلَى ظَهْرِ سَفِينَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ ؛ وَسِرْنَا فِي النَّهْرِ ، مُتَّجِهِينَ صَوْبَ الْمَنْبَعِ ؛ وَمَرَرْنَا فِي طَرِيقِنَا بِأَرْضٍ تُغَطِّيهَا أَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ ، عَلَيْهَا أَزْهَارٌ مُخْتَلِفَةُ بَدِيعَةُ الْأَلْوَانِ . وَعَلَى أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ تَطِيرُ أَسْرَابٌ هَائِلَةٌ مِنَ الطُّيُورِ الْجَمِيلَةِ ؛ أَمَّا النَّهْرُ ، فَقَدْ كَانَ غَاصًّا بِالْبَطِّ يَسْبَحُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ ، أَوْ يَحُومُ مِنْ فَوْقِهِ ؛ فَكَانَ الْمَنْظَرُ جَمِيلاً حَقًّا . وَحَدَثَ أَنْ تَعَطَّلَتْ إِحْدَى السُّفُنِ فِي الطَّرِيقِ ، فَتَرَكْنَاهَا ، وَعَلَيْهَا بَعْضٌ مِنْ رِجَالِي ؛ وَاسْتَأْنَفْنَا نَحْنُ السَّيْرَ . وَبَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً ، وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةٍ هِنْدِيَّةٍ عَلَى سَفْحِ جَبَلٍ أَسْمَيْتُهُ « مُونتْ رُويَالْ » (Mount Royal) وَهٰذِهِ الْمَدِينَةُ تُسَمَّى الْآنَ « مُنْتِرِيَالْ » (Montreal) وَعِنْدَ وُصُولِنَا ، خَرَجَ النَّاسُ جَمِيعاً ، رِجَالاً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً لِلِقَائِنَا ، وَرَحَّبُوا بِنَا كَمَا لَوْ كُنَّا أَفْرَاداً مِنْ أَهْلِهِمْ عُدْنَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ سَفَرٍ طَوِيلٍ ؛ وَلَقَدْ ظَنُّوا بَادِئَ الْأَمْرِ ، أَنَّنَا آلِهَةٌ ، جِئْنَا مِنَ الْبَحْرِ ، فَكَانَ النِّسَاءُ يُحْضِرْنَ إِلَيْنَا أَطْفَالَهُنَّ ، لِنُبَارِكَهُمْ وَنَشْفِيَهُمْ

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي ، ارْتَدَيْتُ أَحْسَنَ مَلَابِسِي ، وَنَزَلْتُ إِلَى الْبَرِّ ، وَمَعِي بَعْضُ رِجَالِي مُسَلَّحِينَ ! لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَ الْأَغْرَابِ ، لَا يَدْرِي مَاذَا يَحِلُّ بِهِ . وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ مُحَاطَةً بِسُورٍ عَالٍ مِنَ الْخَشَبِ ، وَلَيْسَ بِالسُّورِ سِوَى بَابٍ وَاحِدٍ . وَكَانَ عَلَى الْبَابِ ، وَفِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنَ السُّورِ ، أَكْوَامٌ مِنَ الزَّلَطِ مُعَدَّةٌ لِقَذْفِهَا عَلَى رُءُوسِ الْأَعْدَاءِ ، الَّذِينَ قَدْ يُحَاوِلُونَ دُخُولَ الْمَدِينَةِ . وَشَاهَدْنَا بِالْمَدِينَةِ نَحْواً مِنْ خَمْسِينَ مَنْزِلاً ، كُلُّهَا مِنَ الْخَشَبِ الْمُغَطَّى بِقِشْرِ الْأَشْجَارِ وَكَانَ لِكُلِّ مَنْزِلٍ فِنَاءٌ كَبِيرٌ ؛ وَفِي وَسَطِهِ خَشَبٌ يَحْتَرِقُ ، فَتَنْبَعِثُ مِنْهُ نَارٌ هَائِلَةٌ .

وَأَخِيراً وَصَلْنَا إِلَى سَاحَةٍ عَظِيمَةٍ ، اجْتَمَعَ فِيهَا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ ، وَجَلَسَ الرِّجَالُ فِي صَدْرِ الْمَكَانِ يُحْمْلِقُونَ فِينَا ، كَأَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مِنَّا أَنْ نُمَثِّلَ أَمَامَهُمْ رِوَايَةً !! أَوْ نَلْعَبَ بَعْضَ الْأَلْعَابِ !!

ثُمَّ أَقْبَلَ حَاكِمُ الْمَدِينَةِ ، يَحْمِلُهُ عَشَرَةٌ مِنْ رِجَالِهِ ، عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى جِلْدِ غَزَالٍ كَبِيرٍ . وَلَمَّا صَارَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَّا ؛ وَضَعَهُ الرِّجَالُ عَلَى حَصِيرٍ عَلَى الْأَرْضِ ؛ ثُمَّ اسْتَوَى قَائِماً ، وَنَزَعَ تَاجَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَأَلْقَاهُ إِيَّاهُ ، ثُمَّ رَكَعَ أَمَامِي وَكَانَ لِذٰلِكَ الْمَنْظَرِ أَثَرٌ شَدِيدٌ فِي نَفْسِي .

بَعْدَ ذٰلِكَ أَخَذ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَتَهَافَتُونَ عَلَيْنَا ، وَيُرْسِلُونَ إِلَيْنَا الْمَرْضَى وَذَوِى الْعَاهَاتِ مِنْ أَعْمَى وَاصَمَّ وَأَعْرَجَ وَغَيْرِ ذٰلِكَ .

وَصَعَّدْنَا فِى الْجَبَلِ، الَّذِى تَقَعُ الْمَدِينَةُ عَلَى سَفْحِهِ ؛ وَوَجَدْنَا أَرْضَهُ خِصْبَةً ، مُعْنَى بِرِرَاعَتِهَا . وَوَصَلْنَا إِلَى قِمَّتِهِ ، وَشَاهَدْنَا مِنْهَا سِلْسِلَتَيْنِ مِنَ الْجِبَالِ إِحْدَاهُمَا تَجْرِى شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَالْأُخْرَى تَجْرِي جَنُوبًا . أَمَّا الْوِدْيَانُ فَأَرْضُهَا مُسْتَوِيَةٌ خِصْبَةٌ لِلْغَايَةِ . وَيَخْتَرِقُهَا نَهْرُ « سَنْتْ لُورَنْس » . وَاسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ فِى النَّهْرِ فَوَصَلْنَا إِلَى شَلَّالَاتٍ يَنْدَفِعُ عِنْدَهَا الْمَاءُ انْدِفَاعًا شَدِيدًا ؛ فَكَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْنَا عُبُورُهَا . فَعُدْنَا بَعْدَ أُسْبُوعٍ إِلَى سُفُنِنَا ؛ وَكَانَ ذٰلِكَ فِى مُنْتَصَفِ أُكْتُوبَرَ . وَفَضَّلْتُ الْبَقَاءَ بِكَنَدَا ، إِلَى أَنْ يَحِلَّ فَصْلُ الرَّبِيعِ ، حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِنَا ، مِنْ دُونِ أَنْ نَتَعَرَّضَ لِأَهْوَالِ الْبَحْرِ فِى الشِّتَاءِ .

وَلَوْ دَارَ بِخَلَدِى انَّ الْبَرْدَ فى تِلْكَ الْبِلَادِ ، سَيَصِلُ يَوْمًا إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا ، لَفَضَّلْتُ عَذَابَ الْبَحْرِ وَأَهْوَالَهُ عَلَى الْبَقَاءِ . فَقَدْ كَانَتِ الْبِلَادُ ، مِنْ شَهْرِ نُوفِمْبَرَ إِلَى مَارِسَ ، مَغْمُورَةً بِالثُّلُوجِ إِلَى عُمْقِ اثْنَىْ عَشَرَ قَدَمًا . أَمَّا سُفُنُنَا ، فَقَدْ غَطَى الْجَلِيدُ سُطُوحَهَا إِلَى عُمْقِ أَرْبَعَةِ أَقْدَامٍ . وَبَلَغَ الْبَرْدُ دَرَجَةً مُزْعِجَةً ، وَاخَذَ الْمَرَضُ يَفْتِكُ بِرِجَالِى حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مِائَةٌ وَعَشَرَةٌ ، سِوَى عَشَرَةِ رِجَالٍ أَصِحَّاءَ .

واقبل حاكم المدينة يحمله عشرة من رجاله

وَكُنَّا نَدْفِنُ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مِنَّا ، تَحْتَ الثُّلُوجِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْنَا الْجَزَعُ جَمِيعًا ، وَأَصْبَحَ أَمَلُنَا فِى الرُّجُوعِ إِلَى فَرَنْسَا ، ضَعِيفًا جِدًّا .

وَأَخِيرًا ، دَلَّنَا رَجُلٌ مِنَ الْهُنُودِ ، عَلَى شَجَرَةٍ عَصِيرِ أَوْرَاقِهَا يُفِيدُ كَثِيرًا فِى شِفَاءِ الْمَرَضِ الَّذِى قَاسَيْنَا مِنْهُ كَثِيرًا . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِ رِجَالِى ، فِى بَادِىءِ الْأَمْرِ ، أَنْ يُجَرِّبُوا هٰذَا الدَّوَاءَ الْغَرِيبَ ؛

وَلٰكِنَّهُمْ لَمَا أَيْقَنُوا مِنْ فَائِدَتِهِ ، تَزَاحَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى كَادُوا يَقْتُلُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنْ أَجْلِهِ .

وَكُنَّا نَخْشَى كَثِيراً أَنْ يَعْلَمَ الْأَهَالِي بِمَا أَصَابَنَا مِنَ الْمَرَضِ ، فَتَزُولَ عَقِيدَتُهُمْ فِي أَنَّنَا مِنَ الْآلِهَةِ ، فَيَفْتِكُوا بِنَا . عَلَى أَنِّي ، دَرْءاً لِذٰلِكَ الْخَطَرِ ، كُنْتُ آمُرُ رِجَالِي ، حَتَّى الْمَرْضَى مِنْهُمْ ، بِأَنْ يُحْدِثُوا عَلَى الدَّوَامِ ضَجَّةً وَجَلَبَةً دَاخِلَ السُّفُنِ وَعَلَى سَطْحِهَا لِنُوهِمَ الْأَهَالِيَ بِأَنَّنَا صِحَاحُ الْأَجْسَامِ ، وَأَنَّنَا مُنْهَمِكُونَ فِي إِصْلَاحِ سُفُنِنَا .

وَلَمَّا ذَابَتِ الثُّلُوجُ وَكُشِفَ سَطْحُ الْأَرْضِ ، لَمْ يَبْقَ مَعِي مِنَ الرِّجَالِ ، مَا يَكْفِي لِتَسْيِيرِ السُّفُنِ كُلِّهَا فَكَسَرْنَا وَاحِدَةً مِنْهَا ، وَعُدْنَا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ . وَكَانَ وُصُولُنَا إِلَى « سَنْتْ مَالُو » فِي يوليه سنة ١٦٣٦ . وَكَانَ سُرُورُ الْبِلَادِ بِعَوْدَتِنَا بَالِغاً حَدَّهُ ؛ لِأَنَّنَا ، وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَنْجَحْ فِي كَشْفِ طَرِيقٍ غَرْبِيٍّ إِلَى الصِّينِ ، إِلَّا أَنَّنَا نَجَحْنَا فِي الْكَشْفِ عَنْ بِقَاعٍ جَدِيدَةٍ فِي الْعَالَمِ ، وَضَمِّهَا إِلَى مُمْتَلَكَاتِ فَرَنْسَا . »

دجاجة تلتقط الحب

هٰذِهِ اللُّعْبَةُ نَمُوذَجٌ لِدَجَاجَةٍ ، إِذَا شَدَدْتَ أَوْ هَزَزْتَ (البندولَ) الْمُعَلَّقَ بِهَا ، أَخَذَتْ تُحَرِّكُ رَأْسَهَا كَأَنَّهَا تَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَتَهُزُّ ذَيْلَهَا كَأَنَّهَا مَسْرُورَةٌ بِمَا تَأْكُلُ . وَلِصُنْعِهَا اتَّبِعِ الْخُطُوَاتِ الْآتِيَةَ :

(١) ارْسُمْ عَلَى الْوَرَقِ الشَّفَّافِ أَجْزَاءَ النَّمُوذَجِ الْمُبَيَّنَةَ فِي شَكْلِ (١) وَهِيَ (الْجَنَاحَانِ ، وَالرَّقَبَةُ مَعَ الرَّأْسِ ، وَالْبَطْنُ ، وَالذَّيْلُ ، وَالسَّاقُ) ، ثُمَّ انْقُلْ هٰذَا الرَّسْمَ عَلَى خَشَبٍ سَمْكُهُ سَنْتِيمِتْرٌ تَقْرِيباً ، مُرَاعِياً أَنْ يَكُونَ اتِّجَاهُ أَلْيَافِ الْخَشَبِ فِي اتِّجَاهِ طُولِ الْأَجْزَاءِ .

(٢) اقْطَعْ هٰذِهِ الْأَجْزَاءَ بِمِنْشَارِ (الْأَرْكِتْ) .

(٣) ثَقِّبِ الْبَطْنَ بِأَحَدِ الْجَنَاحَيْنِ ، عِنْدَ الْخُطُوطِ الْمَنْقُوطَةِ فِي شَكْلِ (١) ، بِالْغِرَاءِ وَالْمَسَامِيرِ .

(٤) اثْقُبْ ثَقْباً فِي كُلٍّ مِنَ الرَّقَبَةِ وَالذَّيْلِ فِي الْمَوْضِعِ الْمُبَيَّنِ فِي شَكْلِ (١) ، بِحَيْثُ يَكُونُ اتِّسَاعُ الثَّقْبِ كَافِياً لِتَحَرُّكِ الرَّقَبَةِ وَالذَّيْلِ حَوْلَ مِسْمَارٍ ، وَكَذٰلِكَ ابْرُدْ قَلِيلاً مِنْ سَمْكِ الرَّقَبَةِ وَالذَّيْلِ عِنْدَ الْجُزْءِ الَّذِي سَيَكُونُ بَيْنَ الْجَنَاحَيْنِ ، حَتَّى تَسْهُلَ الْحَرَكَةُ .

(٥) ثَبِّتِ الرَّقَبَةَ وَالذَّيْلَ فِي الْجَنَاحِ الْأَوَّلِ ، بَعْدَ أَنْ تُعَلِّقَ بِكُلٍّ مِنْهُمَا خَيْطاً كَمَا فِي شَكْلِ (٢) ثُمَّ ثَبِّتِ الْجَنَاحَ الثَّانِيَ عَلَى الْبَطْنِ بِالْغِرَاءِ وَالْمَسَامِيرِ فَتُصْبِحَ الرَّقَبَةُ وَالذَّيْلُ بَيْنَ الْجَنَاحَيْنِ .